الاجتماع والجموع

خطورة التواكل والاطمئنان

للأستاذ محمد لطفى جمعه المحامى

أثبتنا أن المصرى مدفوع بطبعه و بيئته إلى البسط والاستبشار والتفاؤل ، ونقول إن النفس الانسانية قد تتحول من الفرح بالحياة والمرح وعدم الاكتراث إلى الحذر والارتياب بفعل الظروف والملابسات . فيكون الحذر والارتياب مقدمة للتشاؤم الذى قد يظهر فى حياة الشعب مدة من الزمن تطول أو تقصر . وكما أثبت علماء الاجتماع أمثال ابن خلدون فى مقدمته و بوكل الانجليزى فى الجزء الأول من تاريخ أمته ، ارتباط التطور الخلقى والاجتماعى فى حياة الشعوب وتواريخ الأمم بما تجتازه من خطوات الحياة العامة فى طريق التحول والانقلاب . وبهذه العوامل التى تكون تارة خفية "وطورا" ظاهرة جلية تتأثر الأفراد والجماعات والطبقات فى كل أمة تأثرا محسوسا . ولا يمكن استثناء الأمة المصرية من هذا القانون الإنسانى العام إلا فى حوادث نادرة . وقد يلاحظ المتتبع لهذه الظاهرة الاجتماعية أن بعض الطبقات تغير آراءها ونفسيتها ونظمها تغيرا حثيثا ، و بعضها يخضع للمحافظة المطلقة على القديم ، حتى لكأنها مصابة بالجمود الصخرى الذى لا يلين ولا ينثنى ولو تعرض لأشد العواصف وأعنف الزعازع .

و إنك لتجد الفلاح المصرى من الطبقات التى يصعب تحويلها عن القديم ، فقد وصف هيرودوتس المؤرخ اليونانى الذى يسمى عند الإفرنج " والد التاريخ " حياة المصريين منذ أربعة آلاف عام وصفا يكاد ينطبق فى كثير على ما نشاهده الآن فى حاضر شعبنا ، و بحث بعض مؤرخى الفرنسيين والانجليز فى احتفاظ الفلاحين فى القرن التاسع عشر بأدوات الزراعة كالمحراث والنورج والشادوف والمذراة التى ورثوها عن الفراعنة قبل المسيح بثلاثة آلاف عام ! !

وعلل فيجال و بريستد المؤرخان ذلك الأمر باستقرار المناخ وسخاء الأرض وصفاء السماء و إشراق الشمس وخصوبة التربة وعراقة البيئة ووفاء نهر النيل السعيد الذى يفيض فى كل عام ، ولأجل هذه الثروة التى جادت بها الطبيعة على مصر منذ الأزل ، حتى قيل إن " النيل هبة الله ، ومصر هبة النيل " اضطر المصرى إلى اتخاذ الزراعة مهنته الأولى والأخيرة وحرفته التى اشتغل بها الشعب وحذقها ومصدر أرزاقه فى كل العصور ، وقد كانت محصولاتها

من الكثرة والجودة بحيث غبطتها الأمم الأخرى (ولا نقول حسدتها) فشاركتنا فيها بالتجارة الحرة و بالحيلة تارة و بالغصب طورا ، فجاء الرومان ووصفوا مصر بأنها "مستودع الغلال" للامبراطورية الرومانية ، وجاء بعدهم العرب وغيرهم فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى رووا وادخروا من المال حتى بشموا وتخموا .

وكان من الطبيعي أن تتأثر النفس المصرية بقوة ما حولها من مظاهر الطبيعة : النهر الفياض الهادئ الذى لا يخشى المقيمون على ضفافه شرقا ولا غرقا ، والأرض الفسيحة الخصبة المنبسطة التي تجود على أهليها بالذهب بقليل من التعب ، والشمس المشرقة المضيئة التي لا يحجبها غمام ولا يتهددها ظلام ، والسماء الصافية التي لا ترسل البرق والرعد ولا الصواعق ، فهذه صفحة من حياة الطبيعة كلها هدوء ولين ، وانسجام ، فانطبعت النفس المصرية بهذه الطوابع ، فسادها الاطمئنان ، لأن طول الخبرة على مدى مئات الأجيال وألوف السنين أودعها روح الثقة بالطبيعة والمناخ والخصوبة ، اطمأنت إلى الثبات والاستقرار و إلى السعادة المادية الأبدية ، فلم تتعود الخوف من المستقبل ولا حسبت حساب الطوارئ أو ما تخفيه الأيام المقبلة من تصرفات الأقدار ، ولم تقاس ألم الجوع الصحيح والبرد الشديد اللذين يتهددان غيرها فى البلاد الأخرى ، لأن عذوبة الجو واعتداله جعلا الكفاف كفيلا بسد الحاجة ، وهذا الكفاف فى الغذاء والثياب والفرش والغطاء مكفول على كل حال ، بل الأعجب من هذا كله أن انتظام الإنتاج الزراعى كفى الفلاح مؤونة الادخار ، فكل فصل من فصول العام يدخل عليه بمحصول جديد فلم تنشأ فيه ملكة الادخار التي جعلها الله غريزة فى بعض فصائل الحيوان واتخذها بعض الأمم فى نواحى العالم اضطرارا . فالفلاح المصرى يزرع و يحصد و يستهلك ثم ينفق ما يزيد عن مطالبه المنحة ، فى الأفراح والمسرات و إدخال الهناء على ذويه وأهله وأصدقائه ، ولذا كانت كلمة الادخار أو التوفير أو حساب المستقبل ترن فى أذنه رنينا غريبا كأنه صدى صوت قادم من بعيد كما كان أهم أسباب التهاون اطمئنانه إلى كرم الطبيعة .

* * *

هذا الاطمئنان والركون إلى كرم الطبيعة والثقة البالغة بالهواء والماء والأرض والركود الروحى الذى ولّد الجمود هى الناحيات التي يجب علاجها والعمل على استئصالها من النفس . قد يرد على هذا بأنها بنت الأجيال والقرون ونتيجة العصور الطويلة المتراكمة والثمرة المريرة للحياة الخلوة العذبة ، ولكن هذه حجة لا يؤبه لها فإن الاضطرار الطارئ والتطور السريع فى حياة جميع الأمم القريبة والبعيدة كفيلان بإرغامنا على تغيير عقليتنا تغييرا يلائم الزمان والمكان و إلا اعترانا الاضمحلال والخمول الذهنى بأدواره الأخيرة التي تقضى على حياة الأمم ،

وما أيسر ما يتبع الاضمحلال ذلك الخمول الناتج عن شعور الأمن والطمأنينة ، حتى كأنهما سبب ونتيجة لأن الأمم كالأفراد والجماعات قابلة لأن تشكل بقوة الاضطرار . وأهم العوامل الاضطرارية العامل الاقتصادى ، وقد خرجت أمم كثيرة فى الشرق والغرب من دور الاطمئنان والركون إلى الطبيعة إلى دور العمل والكفاح فى سبيل القوت ، وكان هذا المخرج وحده كافيا لشفائها من أمراضها المزمنة وتطهيرها من أرجاس الخمول فقرب بين نفوسها وألف بين قلوبها وخلق الوحدة الروحية التى أبدلتها من الضعف قوة وجعلت التخاذل والتواكل آمالا فسيحة وقدرة على السعى إلى المثل العليا والأغراض السامية النبيلة والغايات الرفيعة.

لم يتعلم الفلاح المصرى أن الاطمئنان غاية لا وسيلة ، وما يزال يظن الاطمئنان نعمة سلبية تمنحها النفس فتسعد وتنأى بها عن المتاعب ، والحقيقة نقيض ما يعتقد ، لأن الاطمئنان الذى رتع فى بحبوحته أجيالا طويلة داء وعلة وتراخ وعجز ، بل شر الأدواء النفسية وأفتكها بالأمم وقد جنى على كثير من الأفراد والجماعات ، أما الاطمئنان الذى تسعى إليه الأمم الرشيدة ويسعى إليه فى ظلها الأفراد العقلاء والطبقات الموفقة فهو الذى يتلو الجهاد وأداء الواجبات والظفر بالثمرات فيكون خير الجزاء وخير المكافأة ، وهو الذى ترتاح إليه النفس ويهدأ الضمير وتهنىء الأمة به نفسها ؛ أما الاطمئنان الذى ساد مصر وانتشر فى نفوس أهليها فهو اطمئنان المحكوم عليه بالإعدام الاطمئنان الذى يستحق العزاء والشعور بالبلاء ، فما أفظع هذه الحالة النفسية بل النقمة التى أنتجتها نعمة الطبيعة علينا ، وهو قبيح بنا فى أوقات الرخاء والأمان ونذير السوء والشر فى حياة الأمم وأقبح وأشنع وأبشع حين يظلم الزمن حتى تعمه حلكة السواد .

إن الذى لا يدرك هذا السر الخلق فى طبيعة المصرى ، ولا سيما الفلاح خاصة وطبقة الفقراء عامة ، يدهش إذ يراهم يقاسون مشقات العمل المضنى وقلة الطعام وضعف التغذية وجفاء بعض السادة والملاك وشراسة المشرفين على حياتهم ، وهم مع هذه النكبات يحتملونها بالصبر الجميل ، ويتغنون بالأناشيد ، كأنهم يشعرون بلذة الكدح الأليم ! ! تسمع تلك الأغانى فى الزرع والحصيد وحفر الترع وخوض الأوحال . يدهش الناظر إليهم والسامع لأغانيهم كلما اجتمعوا ليتناسوا آلامهم فيظن أنها لذة وفرح ؛ والحق أنها صرخات النفس المعذبة حولتها الطبيعة إلى مخرج فطرى للترفيه والتسلية ومحاربة الوجع . وقد تحدثك نفسك أحيانا أن هؤلاء العناة الذين ينشدون وهم يكدحون ، يخفون بجانب الألم قوة وإيمانا ، وأنه لولا هذه القوة وهذا الإيمان ما استطاعوا فى أحيان مضيا ولا قدروا على إظهار عاطفة السرور الذى يصحب الكد والكدح ، أو عاطفة الصبر على الشدة والتحمل الهادئ البرئ وعاطفة الإيمان بالجزاء الأوفى بعد الموت والتضحية بالحاضر فى سبيل المستقبل . وهذه القوة الكبرى التى صحبت هذا الشعب كل هذه الأجيال هى التى يجب توجيهها للعمل على إنقاذه

من البدعة والخمول والركون إلى الأشياء الخفية — ذلك الركون الذى أدى بهم إلى الجمود والركود اللذين يشبهان الموت .

إننا نرى بعض أفراد الطبقات المستنيرة والفتية يرفعون عقيرتهم بطلب النجدة للفلاح والعامل خاصة والفقراء عامة حتى ظن الكثير من غير الواقفين على الحقيقة أن مصر قد نضب معينها وجف ماؤها وتحول عنها خيرها ، مع أنها من أشهر بلاد الأرض فى الزراعة وأرضها من أخصب أراضى الدنيا . والواقع أن مصر لم تفقد شيئا كثيرا من شهرتها العالمية فى الخصب والخير والجود . ومستحيل أن تعجز عن إطعام بنيها فى الوقت الحاضر ولكن الداء فى أن التطور الاقتصادى أدى بالقلة إلى كثرة الامتلاك ، وبالكثرة إلى قلته . وتغيرت الأوضاع بحكم التطور نفسه إلى أن الذى ينتج لا يملك أن يحصل على مايكفيه من إنتاجه . وهذه المعضلة نفسها عرضت لأوروبا وأمريكا فى الكماليات لا فى الضروريات ، فكان العامل البريطانى أو الأمريكى وإن عجزا عن اقتناء سيارة خاصة لا يعجزان عن قوتهما وقوت عيالهما والزارع الأوروبى إن استعصى عليه تعليم أولاده فى كلية قدر على تعليمهم فى مدرسة عامة ، وكذلك فى العلاج والثياب وسائر مايحتاج إليه الرجل العادى . وهنا فى مصر أدى التطور إلى نقيض هذه الحال . وهذه هى المشكلة لا مشكلة سواها ويظن أنها يسيرة الحل بالتفاهم والتراضى والتحكيم وتنظيم المعونة بين الطبقات .

ولا يفوتنا أن نلقى نظرة عجلى على الأدوار التى مرت بها الملكية العقارية فى مصر منذ بضع مئات من السنين ، فقد حدث منذ خمسة قرون أن سلط الدهر طائفة المماليك على المصريين فنهبوا أموالهم وسلبوا أقواتهم ، وسلط على هؤلاء المماليك أنفسهم فأخذ منهم ما أخذوه من سواهم ولم يبق من آثارهم إلا ما شادوه من قصور ومساجد ومعاهد بعضها امتدت إليه يد الدمار وبعضها بقى بعد الترميم شاهدا ببذخهم وإسرافهم وتبذيرهم . ولكن لهؤلاء المماليك فضيلة واحدة قد أثيبوا عليها رغم أنوفهم ، وهى أنهم احتفظوا بالمال فى البلاد ولم ينقلوه خارجا لأنهم لم يكونوا أهل أوطان أخرى غير مصر وإن عاشوا فيها عيشة الوارث السفيه .

وبعد الدور الثانى الذى انتقل فيه المال الى أيدى من خلفوا المماليك من طائفة الأعيان والتجار وكبار المزارعين ، جاء أعقاب هؤلاء وسلموا مجموع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين وأسماعهم ، والمصريون أولى بالقليل منه . ولكن هؤلاء الأجانب الذين أخذوا الأموال بحيلة واسعة وهى التغرير بالكماليات والانتفاع بداء التقليد المتمكن من أعيان المصريين ، لم يبقوا على الاموال فى مواضعها بل نقلوها ونزحوها بالملايين إلى بلادهم ثمنا للأدوات الجديدة التى أخرجتها مصانعهم فاستغنى بها فقيرهم وعاملهم ومزارعهم وفنانهم وعالمهم وجاهلهم ، غير ما دخل منها فى خزائن المرابين والمقرضين والمضاربين والوسطاء ، وكثير منهم أقاموا فى مصر مددا قصيرة جمعوا خلالها أموالا كثيرة فاتخذوا أرزاقنا ولم يتخذوا أرضنا

دارا لهم واعتبروا وطننا دار كسب لا دار إقامة ، وما خرج من عندنا لم يعد إلينا ولن يعود أبدا . ثم حدث تطور أخير وخطير وهو أن الأموال العقارية أصبحت بتأثير الرأسمالية الدولية ثقيلة على قلوب أرباب الأموال فتأسست الشركات المختلفة المنازع والمقاصد ، وصارت المشاركة فى رؤوس أموالها رهينة بالأسهم التى يسهل حملها ونقلها وتحويلها وبيعها وشراؤها ، وهذا نوع من الثراء لم يكن معروفا فى مصر منذ أكثر من نصف قرن . ونشأ مع هذا التجديد فريق من سادة المال لا يعانون فى تدبيره بعض ما يعانيه أرباب الأراضى والأموال الثابتة ولا يمكن القول جزما بأن هذا الفريق من المتمولين أصبح غريبا عن مصر أو ضعفت أواصر القرابة بينه وبين مواطنيه أو اضمحلت روابط المنافع بينه وبين أهل مصر ، ولكنهم على كل حال يعيشون فى مصر ويربحون منها دون شديد احتياج إليها أو كبير عناية بما يصيبها وقد يشبهون حملة الأسهم والسندات المقيمين خارج هذا القطر ، بيد أن التجربة دلت على أنهم ليسوا أقل وطنية ولا حرصا على مصلحة البلاد ورفاهية أهلها من سواهم .

ولذا تجد بعضهم يصرحون على صفحات الصحف بضرورة النجدة والمعونة ويصفون حالة الفلاح بما يؤثر فى النفوس الكريمة الحساسة . هؤلاء السادة الأغنياء يستدرون العطف والرحمة ويحثون الفضلاء والقادرين على إنقاذ سواد الأمة من كارثة الجوع خشية الفتنة واتقاء الأضرار التى تنجم عن غيظ النفوس والحاجة إلى القوت والثوب ، ولكن الشعب المصرى قد فطر على الطيبة والصبر والتحمل على مدى الأجيال . وقد يعلم الخاصة أنه لا خطر مطلقا على الأمن والثروة من هذه الحال ، وإنما هذا العلم لم يمنعهم عن النداء بالنجدة . فلم يبق إلا العمل على التعاون وحسن التدبير لتفريج الأزمة بالوسائل الاقتصادية الحكيمة لمكافحة الغلاء ، والحيلولة بين الأرباح الحرام وبين الطامعين فى الغنى عن طريق استغلال حاجة الشعب وآلامه ، وبهذا نحول بين الفلاح والجوع القاسى الذى كان يخشى أن يثيره أو يخرجه عن دائرة الاعتدال والصبر ، لأن هؤلاء المتشائمين من الأغنياء يظنون للصبر حدا وللاحتمال غاية وللغليان وقتا محدودا ، ولكنهم لا يعرفون قدرة الفلاح المصرى والفقير المصرى على الصبر والهدوء وحب المحافظة على الأمن والخوف من إغضاب الحاكم وخشية العصيان وهى تلك المناقب الوضاءة فى جبين الأمة المصرية الكريمة التى ساعدتها على المرور بالشدائد الجسيمة فى عهود الغلاء والقحط والمجاعات والأوبئة الوبيلة منذ بجر التاريخ إلى الآن . وربما كان العلاج فى تلك الأزمنة البعيدة صعبا أو باهظا ، أما فى العصر الحاضر فالعلاج سهل هين قريب المنال ولا سيما بعد أن أحس بضرورته الحاكم والمحكوم والراعى والرعية ولم يبق بين الشعور والإرادة والتنفيذ إلا ريثما يصدر القادر أمرا أو يحرر صكا يمهره بتوقيعه فلا أبعاد مترامية ولا أماكن نائية ، فالبدار البدار فان خير البر عاجله وإن مثوبة الله خير من الضن بالدرهم والدينار وإن جميلا يسيرا يدفع بلاء كثيرا ومكرمة فى أوانها أجدى من شح يتبعه ندم .

محمد لطفى جمعه